1

المد والجزر

قال سندباد :

قضينا نهارنا كله على شاطئ البحر؛ فلما غربت الشمس أشار الشيخ إليَّ لأتبعه، فتركت أبا الإسعاد مع حنظل وتبعتُ الشيخ؛ فلما صرنا بعيدين عنهما قال لي: اجلس أحدثك يا سندباد.

ثم مال عليَّ وهو يقول باسمًا : أنت شابٌّ مُسْعَد يا سندباد، فسيكون ذلك الكنز بين يديك بعد ساعات، لا يشاركك فيه أحد من أولئك الطامعين الخونة؛ جزاء إخلاصك وصبرك!

فاستعجبت وقلت : لقد غاص ذلك الكنز في الماء كما سمعت فمن أين أحصل عليه ؟ وكيف يصير بين يدي؟

قال : انتظر وسترى ...

وكان الليل قد بدأ يزحف، فنظر الشيخ نحو البحر، ثم قال : بعد ساعة ينخفض ماء البحر كأنما تسرَّب في مجار مجهولة، ويتكشَّف القاع حتى نرى ما كان تحت الماء ؛ فنعرف طريقنا إلى الكنز!

ومضت ساعة ونحن جالسان في مكاننا نرقب السماء؛ ثم خطا الشيخ

نحو الشاطئ وخلَّفني جالسًا حيث كنت، ولكني وجدتُ في نفسى قوةً تدفعني إلى متابعته، فمشيت وراءه حتى بلغت الشاطئ، ووقفت إلى جانبه أنظر إلى الماء؛ فما كان أشد دهشتي حين رأيت الماء قد بدأ ينحسر عن الشاطئ رُوَيْدًا رويدًا، في تكشف قاعه دراعًا بعد ذراع؛ فخطا الشيخ خطوتين وهو يقول : اتبعني يا سندباد !

فترددتُ برهة، كأنما خشيت أن يعود الماء إلى الارتفاع فيغرقني؛ ولكنى تشجعت وخطوت خطوتين وراءه؛ ثم وقف الشيخ فوقفت ..

واستمر الماء ينحسر عن الشاطئ رويدًا رويدًا، واستمر القاع يتكشف ذراعًا بعد ذراع، والشيخ يخطو مبتعدًا عن الشاطئ خطوةً بعد خطوة، حتى صرنا على بعد مئة ذراع؛ فرفع الشيخ رأسه نجو الجبل، حيث كانت فتحة السرداب؛ ثم قال لي: انظر، أترانا قد وصلنا إلى مَرْمى الفتحة، وهل ترى أشرس لم يزل واقفًا هنالك!

فنظرت، ولكنَّ ظلام الليل كان يكسو الجبل كله، فلم أر فتحة السرداب ولم أر أشرس؛ إن الظلام كثيف فلا أستطيع أن أرى ...

قال : حسبتُك أحدَّ منى بصرًا يا سندباد !

ثم صمت برهةً وعاد يقول : ولكنى أستطيع أن أجزم بأننا الآن على مَرْمَى فتحة السرداب؛ فقد كنتُ أعدُّ خطاي منذ بدأتُ السير ...

ثم مال الشيخ إلى اليمين فخطا خطوتين، ووقف لحظة، ثم نظر إليَّ قائلًا : لو كنتَ حديد النظر يا سندباد كما أظن بك، لرأيت ذلك الكنز قريبًا منك؛ فانظر حواليك وتحت رجليك..

وكانت السماء صافية، فاستطعت أن أرى في ضوء النجوم ما تحت قدميَّ وبعض ما حولي، فازددت تحديقًا لعلى أرى ذلك الكنز، وأنا أخطو خطوات بطيئةً على حذر إلى الأمام، وإلى الوراء، وإلى يمين؛ وإلى شمال...

ولمحتُ على البعد شيخًا جاثمًا، فتراجعتُ إلى الوراء خائفًا، ووثب بي الخيال إلى أشرس، فبدا لي كأنه هو الشبح الجاثم ...

ولمحني الشيخ أتراجع، فقال لي: ماذا يا سندباد؟

قلت : ذلك الشبح الجاثم هنالك، أظنه أشرس الخائن!

قال الشيخ ملهوفًا : أين ؟ فإنني لا أراه !

فتشجَّعت وتقدَّمت، واندفع الشيخ إلى حيث أشرتُ فسبقني؛ ولم يلبث ذلك الشبح أن انكشف لأعيننا، فإذا هو " شيء " لا إنسان فلم يكد الشيخ يراه حتى ازداد اندفاعًا إليه وهو يقول : إنه الكنز ...

وسحرتني تلك الكلمة ومنحتني قوةً غير عادية، فأسرعت وراء الشيخ وأنا أردد بلا وعي: الكنز!..

وخُيِّلَ إليَّ في تلك اللحظة أن الدنيا قد ازدادت نورًا، وأن نجوم السماء أشدُّ لمعانًا وضياءً مما كانت منذ لحظات؛ إذْ بدا المنظر لعينيَّ في تلك اللحظة واضحًا أشد الوضوح، كأننا ماشيان في ضوء النهار؛ فزادني ذلك النور استبشارًا وأملًا..

ولكن ذلك الاستبشار لم يلبث أن ذهب حين سمعتُ الشيخ يهتف بي في خوف : القمر!

ثم رأيتُه يستدير عائدًا نحو الشاطئ وهو يقول : اتبعني سريعاً؛ لقد ظهر القمر يا سندباد، وعاد الماء يزحف نحو الشاطئ!

وأحسست في تلك اللحظة كأن جيوشًا زاحفةً تطاردني وأنا أعدو وراء الشيخ؛ ولم أكن في هذا الإحساس واهمًا، فإنماء البحر قد بدأ يرتفع زاحفًا وراءنا، وكان اندفاعه سريعًا وقويًّا حتى يئست من إمكان بلوغ الشاطئ قبل أن تدركنا أمواجه الزاحفة...

ولو أننا تأخرنا دقيقةً أو دقيقتين ولم نسرع إلى الشاطئ لغرقتُ وغرق الشيخ معي؛ ولكننا تنبهنا قبل أن يغطي علينا الماء فيغرقنا، وأسرعنا فنجونا ولم نكد؛ فما هي إلا لحظات بعد وصولنا إلى الشاطئ حتى عاد الماء إلى ارتفاعه، وعاد الموج إلى صخبه وعنفه، وعلا الزَّبدُ فوق سطح الماء كأنه في ضوء القمر فضة ذائبة...

وتذكرت – حين رأيت ذلك الزَّبدَ الفضيَّ – الكنز الذى تركناه تحت الماء، فكأنما خُيِّل إليَّ أن هذه فضَّته الذائبة!

ووقف الشيخ على الشاطئ يلهث، ووقفت إلى جانبه صامتًا، والأفكار تصطرع في رأسي، وفى نفسي شعور عميق بالأسف !

ولم يلبث الشيخ أن استردَّ هدوءه وانتظمتْ أنفاسه، فوضع يده على كتفي وهو يقول فيم تفكر يا سندباد؟

قلت : إنني أفكر في ذلك الذي انحسر عن الشاطئ فجأةً، كأنما تسرَّب في مجارٍ عميقة تحت الأرض؛ ثم عاد فارتفع فجأةً، كأنما انحدر به سيل من وراء الجبل...

قال الشيخ : إن انحسار الماء عن الشاطئ يا سندباد لم يكن أمرًا مباغتًا؛ فقد كنت أتوقَّعه قبل أن يكون؛ ولذلك صحبتُك إلى هذا المكان منذ ساعات، انتظارًا للساعة التي ينحسر فيها الماء فنخوض إلى الكنز؛ ولم يكن ارتفاع الماء في البحر مباغتًا كذلك، فقد توقعَّته منذ لمحت القمر؛ ولذلك أسرعت عائدًا إلى الشاطئ ودعوتك إلى الإسراع معي، لننجو قبل أن يغمرنا الماء فنهلك!

فقلت له : كيف عرفتَ أن الماء سينحسر قبل أن ينحسر، فاستعددت لخوض البحر؛ وكيف عرفتَ أنه سيرتفع قبل أن يرتفع ، فأسرعت بالفرار؟

قال الشيخ : ذاك هو الجزْر والمدُّ يا بني كما يسميهما علماء الجغرافيا في هذا الزمان؛ وكل الذين يعيشون بالقرب من شواطئ البحار يلاحظون أن الماء ينحسر عن الشاطئ حين يغيب القمر، ويرتفع حين يظهر القمر، فيسمُّون انحساره جزْرًا، ويسمون ارتفاعه بعد ذلك مدًّا...

وعلى أساس ما أعرف من هذه الحقيقة دبَّرتُ أمري للحصول على الكنز، ولكن المد في هذه الليلة كان أسرع مما قدَّرت؛ ولكننا لن نُفلتَ الكنز، فنقضي يومًا آخر في هذا المكان ، لنعاود المحاولة في الليلة القادمة...

وصمت الشيخ برهة ثم قال : ولكني أخاف تدبير أشرس؛ فإني لا أعرف أين هو الساعة، لعله كان عند فتحة السرداب ينظر إلينا من حيث لا نراه، ولعله قد عرف بالمشاهدة ما عرفناه من سر الجزر والمد، فيسبقنا إلى الكنز!

وعاد الشيخ إلى الصمت وهو يقرض بأسنانه طرف شفته وقد استغرقه الفكر، ثم استأنف قائلًا: لو كنت أعرف أين هو الساعة....

وقبل أن يُتم الشيخ قوله، برز لنا من بين الظلام شبح، فارتمى على الشيخ قائلًا : هأنذا !